أخلاقنا التى ذهبت!!

د. عزت عبدالعظيم الطويل
أستاذ علم النفس
بكلية الآداب بجامعة بنها

فى الألفية الثالثة، وفى زمننا هذا، نرى أن هناك تناسباً عكسياً بين التطوُّر التكنولوجى المذهل وما يكتنفه من علمنة وعولمة، وبين الأخلاق والقيم التى تربَّينا عليها ونهلنا من رضابها، وفى هذا المجال برزت على السطح جماعتان: جماعة تتمسك بالقيم وفضائل الأخلاق وتقبض عليها كالقابض على جمر من النار، وجماعات أخرى منهمكة بالعبث بالشرف والفضيلة والأخلاق، وتؤمن إيماناً راسخاً بالتهاون والتسيب والفهلوة والانحلال والتحلُّل.

ويمكن القول بأن ذا الضمير الحى، وصاحب المبدأ الذى يتسم بالالتزام والانضباط وصدق الوعد، والوفاء بالعهد والإحساس بالآخرين والمحافظة على الكرامة الشخصية، والإيمان بالواحد الرزاق، يرى أن كل هذه القيم الراسخة – فى زمننا هذا – لم يعد لها شأن يُذكر كسابق عهدها، فأنت أمام رجال كالنخل وما يدريك ما الدخل؟.. ففى ظل «العلمنة» والنفاق والفهلوة والتسيب والإهمال وانتشار الفن الإباحى ، والهوس الكروى، والإعلام الموجه المصحوب بالخيال المريض وانعدام القدوة.... فى ظل كل هذا، هان المبدأ وماتت المروءة وولّى الإخلاص، وتلاشت القيم وجفت ينابيع الحب الأصيل، وتلاشت الأخلاق. وذات مرة قال لى أحدهم – لا فض فوه – الحياة سريعة التغيُّر والتبديل، وبالمادة نحيا ونعيش، ونستمتع بكل ما هو جديد ومريح. وعن إخلاصك النادر لكل ما هو قديم سواء كان هذا القديم: زوجة أو صديقا أو مسكنا أو سيارة أو وعدا أو عهدا... كل هذا رجم بالغيب وأراجيف وخزعبلات لا وجود لها فى زمننا ولا تليق بك ـ كأستاذ جامعى - أن تأخذ بها أو أن تتبناها بين حنايا الضلوع إذا كنت تريد الصعود فى السلم الطبقى ...وهنا نتساءل ماذا جرى للإنسان المصرى ؟ وكيف حدث ذلك ؟ حدث كل هذا فى زمننا الذى اخترقته سلبيات أفرزت بدورها إفرازات سامة بدأت تنخر فى نسيج مجتمعنا المصرى حيث تركت ندوباً عميقة فى كيانه فتلطخ الثوب الأبيض بالبقع السوداء التى وصمته بالمرض والفساد والتناقض الاجتماعى الشديد ، فأصبح الفقير غنياً والغنى فقيراً، والعملاق قزما، والقزم عملاقاً، والشريف لصا واللص شريفاً، والبرئ مذنباً والمذنب بريئاً.

هذا، وكأن حافظ إبراهيم شاعر النيل كان يرى بعين الغيب حين قال:

فيا أمةً ضاق عن وصفها
*** جنانُ المفوه والأخطب**
تضيع الحقيقة ما بيننا
*** ويصلى البرئ مع المذنب**
ويُهضم فينا الإمام الحكيم
*** ويُكرم فينا الجهول الغبي**

ولنا أن نتساءل مرة ثانية: هل أخلاقيات المرء موروثة أم مكتسبة؟

للإجابة على هذا السؤال، نرى أنه طبقا لافتراض فرويد الذى يبرّر به وجود ثنائية فى المشاعر نحو الموضوع الواحد أى أن نحبه وأن نكرهه فى نفس الوقت، وهذه المشاعر المتناقضة التى لا تفسير لها سوى افتراض وجود: عقل جمعى Collective mind ينقل إلينا عبر الأجيال ما حدث فى الماضى البعيد للجنس البشرى، ومن ثم فإن العقل الجمعى هو الذى يترجم السلوك البشرى إلى معايير أخلاقية وقيم اجتماعية وأنماط سيكولوجية، يسير على هديها أو منوالها، أفراد المجتمع فى سلوكهم إيجاباً أو سلباً ، استحساناً أواستهجاناً طبقاً لعملية التنشئة الاجتماعية التى نعنى بها « أنسنة الإنسان» التى يتشرب Absorb الطفل فيها عادات مرغوبة واندماجات شخصية Personal Identifies محبوبة وهذا ما كان يعنيه أحد الشعراء :

وينشأ ناشئ الفتيان فينا
* على ما كان عوَّده أبوه

وهنا نرى ملامح اكتساب المرء للاتجاهات النفسية ، والقيم الأخلاقية.

أما عن الجانب الوراثى لأخلاقنا فيكمن فى «اللاشعور الجمعى» Collective Unconscious الذى يرى «يونج» بأنه الجزء اللاشعورى الجمعى الموروث والمشترك بين الناس جميعا، إنه تلك العناصر الكامنة فى لاشعور الفرد المستمدة من تجارب الأسلاف، واللاشعور الجمعى ما هو إلا مخزن الذكريات التى ورثها الإنسان عن ماضى أسلافه.

هذا ويمكن القول بأن المعايير الأخلاقية Ethical norms فى كل المجتمعات الإنسانية لا تخرج عن أنها خليط من التجارب الوراثية والسلوك المكتسب.

ويرى كاتب هذه السطور أن مفهوم الأخلاق يتضمن الرفق والحلم والأناة والعفو، حيث نقرأ فى قوله تعالى:« والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» .. آية 134 - سورة آل عمران، وكذلك قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف ...» آية199 - سورة الأعراف.

وعن الرفق والأناة والحلم فى السنة المطهرة والأحاديث النبوية الشريفة جاء عن ابن عباس رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشجّ عبد القيس « إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله الحلم والأناة» رواه مسلم، وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله» متفق عليه، وعنها أيضا أن النبى عليه الصلاة والسلام قال« إن الرفق لا يكون فى شىء إلا زانه، ولا ينزع من شىء إلا شانه» رواه مسلم.

هذه هى مكونات الأخلاق التى حثنا الإسلام عليها وعلى الأخذ بها: وهى الرفق والحلم والأناة والسماحة والود والحب والسلام، ولا غرو فى ذلك عندما نقرأ قوله تعالى لرسوله الكريم «وإنك لعلى خلق عظيم» آية 4 - سورة القلم. ويأبى الشعر إلا أن يدلى بدلوه فى هذا المجال حيث أنشد أمير الشعراء أحمد شوقى:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت
* فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وفى النهاية مسك الختام حيث قال عليه الصلاة والسلام: «إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقا، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويُؤلفون» صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.